الفصل الثالث عشر

ظهور دولة آل عثمان

ولقد ذكر المؤرخون الترك والجهابذة ما أسلفنا ذكره من دول وملوك سكنوا هذه الأرض، ووقع كثير من الخلاف بين الأمم، أما الترك ومن ملكوا أمرهم بأمر الله من ذرية عيص بن إسحاق ثم انتهوا إلى يافث ثم إلى نوح ـ عليه السلام ـ ومن أرومتهم الطاهرة ظهر السلاجقة أول من وطأت قدمهم بلاد الترك وفى عام ٤٤٧ أربعمائة وسبعة وأربعين اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبًا وقالبًا واستولوا على ديار ملاطيا وقيصرية وعلائية وأنطاكية وقونية وأصبحوا ملوكًا مستقلين وظهروا من بلاد ما وراء النهر واقتضت مشيئة الله أن يغادر سليمان شاه وأرطغرل وهم أجداد العثمانيين بلدهم ماهان خوفًا من بطش المغول وقدموا إلى مدينة أخلاط وسكنوها، وفى عام ( )[1] ولما كانوا فى اتجاههم غربًا إلى ساحل نهر مراد غرق رئيسهم سليمان شاه وهو يغتسل فى النهر عند قلعة جعبر، وهناك دفن. وانطلق أرطغرل مع جميع رجاله إلى علاء الدين السلجوقى، وإذ هو فى الطريق إليه صعد ربوة وبينما هو ينظر إلى سهل قونية وقعت عينه على جيشين كأنهما بحران يقتتلان، وكانت الغلبة لجيش التتار على جيش السلاجقة وعلى رءوس رجاله بيض العمائم فقال أرطغرل: لنبذل لهم العون فما نحن من التتار. فرفع لواءًا محمديًا أبيض وتعقبه التتار بجميع جنودهم وأعد لهم كمينًا فتردوا فيه، فكان فرارهم بديلاً من قرارهم فعادت الحياة إلى السلاجقة. فلم ينج أحد من التتار، وقدم علاء الدين مدينة قونية مظفرًا فخلع على أرطغرل خلعًا فاخرة ومنحه رتبة أمير الجناح الأيمن وولاه على بورسة، وقد غنم أرطغرل غنائم كثيرة من مناطق «بيله جك و«ايلى باط» و«اينه كول» و«يلق ابادو» وغيرها من المناطق المجاورة لولاية بورسة، وقدم بهذه الغنائم إلى السلطان علاء الدين، كما غنم كثيرًا من الجند بمال الغزوات وأصبح علاء الدين على تعاقب الأيام ملكًا عظيمًا بعون من أرطغرل وكان السلاجقة يتلقبون بالسلاطين، ولما قدم الكفار إلى اوسكدار لم يستطيعوا رفع رأسهم

(١) بياض بالأصل.

لأنهم جميعًا تحت حكمه، وله سبعون من أصحاب الطبل والعلم و( )[1] أمير لواء وجيشًا. أما أمراء اللواء الذين كانوا للسلطان علاء الدين فهم، آل ذو القادرية فى مرعش والرمضانية فى أدنه والملك الغازى الدانشمندى فى سيواس، وآل ( )[2] فى قسطمونى، وآل فرهاد فى أماسية وآل كرميان فى كوتاهية وآل سبحان فى أنقره وآل صادحان فى ولاية صارصان، وإمارة آل عماد فى يد العماد، وإمارة صونقور فى يد أمير صونقور وإمارة كسكن فى يد الكسكان، وآل تكه فى ولاية تكه والحميديين فى ولاية حميد وإمارة منتشة فى يد آل منتشه وآل قرمان فى ولاية ولارنده وإمارة آل أيدين فى حوزة آل أيدين والأمير أرطغرل فى يلق اباد وفى عام ٦٨١ فى مدينة قونية توفى سلطان العلماء بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى عهد السلطان علاء الدين، وخلفه ابنه مولانا جلال الدين الرومى، ولقد منح الأمراء السالف ذكرهم لقب سلطان العلماء وسوف يذكر كل منهم فى موضعه ومضى السلطان علاء الدين بجيش عظيم صوب أرض روم وفى موضع يسمى فناده أصبح حزينًا وبينما كان يرقد عليلاً دس السم له ابنه غياث الدين تهالكًا منه على طلب الدنيا، وفى هذا الموضع مزق الجند غياث الدين تمزيقًا، فحملوا نعشهما إلى قونية ودفنوهما داخل القلعة، ودالت دولة السلاجقة بعد ذلك بستة وعشرين عامًا وعدد سلاطينهم أربعة عشر، فاجتمع جميع علماء الروم وتشاوروا فى الأمر، فولوا الخلافة أرطغرل وبايعوه، ولما عاد من غزوة بورسة مات جريحًا ودفن فى قصبة تسمى سكوت. كما استشهد صاووجى بك ابن أورخان فى غزوة طومالج ودفن كذلك إلى جوار أرطغرل، وتشاور العلماء ثانية فجعلوا عثمان الصغير بن أرطغرل خليفة مستقلاً فى رأس شهر سبعة، وبايعه السلاجقة من أعماق قلوبهم، كانت ولادته سنة ٦٥٦هـ، وتولى الحكم سنة ٦٩٩، ودامت سلطنته ست وعشرين سنة وتوفى سنة ٧٢٦ وعمره ٦٩ عامًا. ثم أصبح أورخان بك خليفة بعده، ودامت له السلطنة خمسًا وثلاثين سنة.

(١، ٢) بياض بالأصل.

وسليمان باشا ابن أورخان، وقره مرُسل بك، واجه يعقوب بك مع أربعين من الأعيان بالقرب من قبو داغى فى البحر الأبيض من موضع يسمى بابسكى خرجوا على رمثهم مع خيلهم صوب الروملى، ولما بلغوا (غاليبولى) ركبوا خيولهم وأغاروا عليها، وتتقدم أفواج الجند يومًا بعد يوم ففتحت قلعة (غاليبولى) وضرب سليمان الغازى باب القلعة بيده، وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم، فتحت فى عام سبعمائة وواحد وستين ٧٦١، وأصبحت القلعة فى يدهم ووزعت الغنائم على غزاة المسلمين وتزوجوا ما أسروا من نساء، وولدن لهم.

وكان فى المنطقة المعروفة بالروملى من الكفار اثنتا عشرة ملة مثل الروم والبلغار وأفلاق الصرب وونيق والكروات واللاتين والبوشناق واللاز، وقد تخربت ديارهم ولم يستطيعوا فتح أعينهم وجمعوا من الغنائم ما جمعوا إلى أن وصلوا إلى نهر الطونه فغنموا الأموال الطائلة وأسروا منهم فتيات وفتية وأعملوا السيف فى آبائهم الكفار، وضيقّوا عليهم الخناق فى ديارهم، وفتحوا آلافًا من قراهم وقصباتهم ومدنهم. وفى موضع يسمى (بولاير) سقط سليمان باشا عن فرسه وتدحرج على الأرض فرمحه الفرس فى رأسه؛ فمات. وهو مدفون فى قبر فى ذلك الموضع المسمى (بولاير)، وفى ذلك الموضع جامع وتكية ومبرة، وكانت وفاته عام (٧٦٠).

وأول من مضى إلى الروم هو سليمان باشا هذا وعاش أورخان ثلاثة وثمانين عامًا واعتلى العرش عام ٧٢٩ سبعمائة وتسعة وعشرين. أما مولده فكان فى عام ستمائة وثمانية وسبعين وتوفى عام سبعمائة وواحد وستين (٧٦١). وتلقب أخوه (خدا وندكار غازى) بالبك، وعاش خمسة وستين عامًا، وكان مولده عام ٧٢٧ وحكم واحدًا وثلاثين سنة، فتح أدرنة. وفى حرب قوسوفا قام من بين قتلى الكفار من طعنه بخنجر فاستشهد. كما قُتل قاتله فى الموضع نفسه، ثم نقل جثمان مراد خان إلى مدينة بروسة ودفن فى موضع يسمى (اسكى قبليجه)، ثم خلفه ابنه يلدريم خان الغازى فى عام (٧٩٢)، ومولده فى عام ٧٤٨ واعتلى العرش عام ٧٩٢، حكم ستة عشر عامًا. وكان شجاعًا مقدامًا وفى عام واحد غادر بلاد الترك لقتال كفار الأفلاق وبغدان، ولذلك

سموه يلدريم خان أى الصاعقة، وإن كان عظيمًا إلا أنه عاش ستين عامًا، وكانت له السلطنة ستة عشر عامًا. أما سبب موته فهو انهزامه فى حربه مع تيمور، وبينما كان فى سجن تيمور مات محمومًا، فحملوا جثمانه إلى جامعه فى بروسة حيث دفن.

وآلت الخلافة من بعده إلى ابنه محمد خان جلبى فملك عام ٨٠٤، وكان مولده عام ٧٤٦ ومدة خلافته ثلاثون عامًا، وعُمّر ( )[١] سنة.

وجاء بعده ابنه مراد بك، وكان ذلك عام ٨٢٣ وحكم واحدًا وثلاثين عامًا، وعاش تسعة وأربعين سنة وتوفى عام ٨٥٥.

آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبو الفتح سلطان محمد خان عام ٨٥٥، حكم واحدًا وثلاثين عامًا، وتوفى فى عام ٨٨٦.

وتولى ابنه با يزيد خان الخلافة من بعده وكان مولده عام ٨٣٥ ودام حكمه إحدى وثلاثين سنة، ووفاته فى عام ٩٢٨ وعُمّر إحدى وتسعين سنة.

وجاء من بعده ولده سليم الأول الذى ولد عام ٨٧٣ وكان فى الثالثة والأربعين حينما اعتلى العرش، ومات سنة (٩٢٦) وحكم ثمانية أعوام، وعاش إحدى وخمسين سنة.

وكانت الخلافة من بعده لولده سليمان خان الذى ولد عام ٩٠٠، وحكم ثمانية وأربعين عامًا، عُمِّر ( )[٢]، ثم كان الملك من بعده لسليم الثانى الذى ولد عام ٩٢٩ وجلس على عرش الدولة عام ٩٧٣ وحكم ثمانية أعوام، عاش اثنتين وخمسين سنة، وكانت وفاته عام ٩٨٢، ثم أصبح ولده مراد الثالث سلطانًا وكان قد ولد عام ٩٥٣، واعتلى عرش الدولة عام ٩٨٢ ودام حكمه إحدى وعشرين سنة وتوفى عام ( )[٣]، ثم أصبح ابنه محمد خان الثالث ملكًا من بعده الذى ولد عام ٩٧٦ وكانت ولادته فى مغنيسا. واعتلى العرش عام ألف وثلاثة فى يوم الجمعة السادس عشر من شهر جمادى الأولى، حكم تسع سنين، وتوفى عام ألف واثنى عشر ١٠١٢، ثم كانت الخلافة من بعده لابنه أحمد خان وذلك فى عام ١٠١٢، ومولده فى مغنيسا،

(١ : ٣) بياض بالأصل.

وجلس على العرش فى الرابعة من عمره، فحل محل جده العظيم، وكان ذلك فى الثامن عشر من شهر رجب عام ألف وثلاثة عشر ١٠١٣، ووافاه الأجل عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦، حكم أربعة عشر سنة، عُمِّر ( )[١] سنة.

وجاء بعده أخوه مصطفى خان عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ وعزل فى الثالث والعشرين من شهر ذى القعدة، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر، ثم خلفه السلطان عثمان عام ١٠٢٧، حكم خمس سنوات واستشهد فى الثامن من شهر رجب عام ١٠٣١، ثم أصبح مصطفى خان خليفة فى غرة ربيع الأول من عام ١٠٣١، ثم عزل.

ثم كانت الخلافة للسلطان مراد الرابع ابن أحمد خان سنة ١٠٣٢، ودام حكمه سبعة عشر عامًا، وعاش ( )[٢] عامًا، ثم آلت السلطنة إلى إبراهيم خان بن أحمد خان عام ١٠٤٩، ودامت له السلطنة ( )[٣] عامًا، واستشهد عام ( )[٤]، وأصبح ابنه محمد الرابع سلطان آل عثمان عام ١٠٥٨، وحكم ( )[٥] عامًا، وعاش ( )[٦] عامًا، أدام الله سلطانه آمين يا معين.

وقد خص الله ـ تعالى ـ الدولة العثمانية برعايته. واستولوا على سبعين مملكة، وكان سببًا فى تملك العثمانيين وكانت السبب فى تلقبهم بخادم الحرمين الشريفين ومولانا ملك ملوك العرب والعجم وعلى رأس جميع الملوك والسلاطين السلطان سليم الأول فاتح مصر ابن با يزيد خان ـ رحمة الله عليه.

سبب غزو سليم لمصر

لا يخفى على مؤرخى العالم أن أبا الفتح السلطان محمد الفاتح بعد أن ألحق الهزيمة بأوزون حسن فى صحراء «ترجان» عطف عنانه صوب طرابيزون على ساحل البحر الأسود وحاصرها برًا وبحرًا، واستولى عليها بعد قلة من الأيام، وولى عليها الأمير با يزيد، فأقام العدل فى الناس، ثم ولد سليم الأول وكان مسعود الطالع، وعلى تعاقب الأيام أصبح شمس الدنيا، ومن هذه البقعة خرج أبو الفتح ليحارب عُصاة القره مانييه، وفى موضع يسمى (مال تپه) على مقربة من اسكودار أدركته الوفاة، فانتقلت

(١ : ٦) بياض بالأصل.

السلطنة وتخت الخلافة إلى السلطان با يزيد ولى، وأصبح ابنه الأمير سليم واليًا على طرابيزون، وولاه عليها حاكمًا مستقلاً ومعه عشرون ألفًا من جند الإسلام ممن قالوا «نحن لها». وأكد با يزيد أنه سوف يفتح أكناف الأرض واستقر على العرش فى الأستانة وهو يرعى أمور المسلمين، أما الأمير سليم فقد أغار على جورجيا ومكرلستان وداديان واتسع فى فتوحاته فى تلك البلاد، وبالتعاون مع ميراخان من أسرة أوزون حسن فتح سليم خان قلعة (جانخه) وجعل لها مفتاحًا من فضة. وأرسله مع ثلاثمائة قنطار من الأوانى الفضية إلى با يزيد، فأرسل با يزيد ولى إلى الأمير سليم خلعًا فاخرة، وجعل سليم خان (جانخة) حاضرة ملكه، وضم إليها آلاف من حملة البنادق الشجعان ويسمون الآن جانخه لأن فى سبعة مواضع منها مناجم للفضة تجرى كالأنهار، وشاء الله أن يظهر فى طالع الأمير سليم منجم للذهب. فصنع منه مائة ألف دينار ذهبًا وأرسلها إلى أبيه كتب عليها: (السلطان با يزيد بن محمد خان عَزّ نَصره ضرب جانخه سنة ( ))[1]، فقال له با يزيد لفرط سروره منه: لتكن المملكة حلالاً لك، لقد وهبتك ما فتحت من ديار والغيرة والحمية لك.

وأرسل بذلك منشورًا إليه، ولما بلغ هذا المنشور الأمير سليم حتى أصبح كأنه تنين ذو سبعة رءوس وفى فترة قدرها سبع أو ثمانى سنوات أتم فتح خمس وأربعين مدينة وقرية وحصن حصين مثل: حصار، ونكسار، وبايبورط، وانسيز، وطوزطوم وأرزنجان، وحينما مضى نصره الله نصرًا عزيزًا، إلا أن السلطان با يزيد ولى كان مشغولاً بمحاربة البنادقة فى أوربا وفتح قلعتى متون وقرون من ولاية المورة، وقد تعاون علاء الدولة بن ذى القدر مع القزلباش، والآق باش فى مرعش على قلب واحد وهدف واحد فبلغ القزلباش طوقاد وسيواس وأماسيه وعثمانجيق واستولوا عليها واستأسد العجم يومًا بعد يوم. وكان الأمير سليم يغير على مؤخرتهم وينال منهم ولكن ما العمل ولعجم عدد لايُستهان به.

(١) بياض بالأصل.

وذات مرة قدم با يزيد على رأس جيش عظيم وتحارب مع العجم فى سهل طورحال وكانت الحرب حربًا ضروسًا، ومن قبل علاء الدولة صاحب ذو القدرية أرسل سلطان مصر الغورى اثنى عشر ألف فارس دخلوا المعركة واشتبكوا مع جند با يزيد، فكانت سوقًا للسلاح لا قدرة للسان على وصفها، وفى وقت الغروب اتجه الأمير سليم بجنده إلى جبال جانخه، وفى جهة أخرى بقى العجم والتركمان وجند الغورى فى ميدان المعركة، أما الأمير سليم فكان يقول: تبًا لكم أيها المصريون تبًا لكم، إذا ما وهبنى الله تعالى عرش آل عثمان، علىّ عهد الله أن أغزو العجم، ثم ابن ذو القدر، ثم مصر، إن هؤلاء ملوك مسلمون إلا أنهم يؤازرون العجم، أما القزلباش فقطعوا رءوسهم وأرسلوها مع الرسائل من اسكودار إلى حكام سيواص وبناء على ذلك بدأ آل عثمان يؤدون الخراج للعجم، وبذلك ذل العثمانيون وحقروا، فآثر با يزيد ولى حياة الخلوة والاعتكاف، وبدأ يقوم بالمجاهدات والرياضات ونفض يده من الدنيا، واستشار سليم أهل المشورة من ساكنى طرابيزون إلى ساكنى الأستانة، وقالوا له: اظهر لنا فى شرزمة من الجند وسوف نسلمك العرش، قضى الأمرُ وحسبنا هذا ولا شك، ولما شاع هذا الخبر كان سليمان خان ابن سليم خان قد ولد فى مدينة طرابيزون وكذلك سليم خان، ولذلك كتب الشاه إسماعيل رسالة مفعمة بالفحش سماه فيها ابن اللاز، كما كان الأمير سليمان ابن سليم شابًا كُفُئًا، كما رغب سليم إلى أبيه أن يسند ولاية (كفه) إلى سليمان، فتقبل منه هذا الرجاء، وقدم إليه خمسة آلاف جندى ممن قالوا (نحن لها) وبمائتى سفينة بلغ (كفه) من طرابيزون، واعتلى عرشها وبدأ يجمع الجند حوله، وعلى إثر ذلك أركب الأمير سليم عشرة آلاف جندى فى خمسمائة سفينة وبلغ ميناء كفه ودخل قلعتها والتقى بملك التتار منكلى كراى خان وأطلعه على السر فقال خان التتار على بركة الله، ومضى فى أربعين ألف جندى وجمع سليم عشرين ألفًا كذلك وقطعوا المنازل والمراحل وأقاموا فى موضع يُسمى «أوغراشى دره سى» فى منطقة تسمى برادادى ووافق جند الديوان السلطانى من أتباع السلطان با يزيد ولى على ملاقاة سليم، وشاور با يزيد أصحاب مشورته فقال أحدهم: إنه شاب سعود طالما يعتلى العرش سوف يقضى علينا فالأجدر بنا أن نحاربه،

وبذلك بـدأوا فى القتـال. أما سليـم فلم يتحـرك. فأطلقـوا على جنـد سليم الـبنادق والمدافع، وفـى وادى «أوغراش» واجه الفـريقان كل منـهما الآخر واخـتلط المتـحاربون ودارت الدائرة على عسكر سليم وفَرّ صوب الطونـة واتصل بعلماء الصوفية وانهزم على ساحل البحر الأسود، وفى موضع يسمى وارنه ركـب فى سفينة ثم انطلق إلى حاضرته القديمة طـرابيزون ولزم الصمت، أما نائـبه (صارى قيابك) فكان الحاكـم فى طرابيزون كما أن (على بك) قام بالحراسة وتولى الأمير سليمان شئون كفه.

سيرة السلطان سليم خان

إن سيرة السلطان سليم هذه أوردها فى أمانة من أبى، انتقل والدى الدرويش محمد ظللى ـ رحمـة الله عليه ـ من دار الفناء إلى دار البـقاء وله من العمر مائة وسـبعة عشر عامًا، وعلـى ما تجولت سائحًا لم يـتشرف أحد مثلى بمـصاحبة ثلاثين سلـطانًا من آل عثمان، ما عـدا السلطان سليمان خـان الذى صاحبته فى غزوة سيّـدوار وكنت حاضرًا حارضة فـتح قبرص مع الـقائد مصطـفى باشا وأرسـلت مفاتيـح قلعة (ماغـوسه) إلى السلطان سليم الثـانى وبعد ما أحسن وأنعم علىّ منحنى رئاسـة جوهرى الباب العالى، وأعطانـى المنشورات الدائـمة، وفى عهد السـلطان أحمد صـنع والدى الميزاب الـذهبى للكـعبة فى مكة، ووضـع على سطح الكـعبة ميزاب الرحـمة مع خدمة أمانـة الصّرة. والغرض من هذا تبيان أنـه كان شيخًا مجربًا خبيرًا، وقزو على أغـا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان خان، مات وله مائة ثمانية وأربعون سنة.

واجتمع عبدى افندى صاحب منزل برنجى زاده ومحمد افندى قره فروعَرَب، وبمقدم هؤلاء الشيوخ سُررتُ بهم، وبينما كانوا يتحدثون مع أبى دخل رجل نحيف يتوكأ على خدم وما إن ظهر مـن الباب حتى نهض جميع الجـالسين مع أبى فقدموا لاستـقباله فى إجلال وإعظام وأجلسوه على أريكة عالية ورحبوا به.

وكان رحيق الـبرش والقهوة مما يـشرب على نطاق واسـع وتحدثوا وانتشوا؛ فـأمالوا قلانسـهم، وجعلـوا يهزون؛ فقـال قزوعلى أغا الـذى كان يسيـر فى ركاب السـلطان سليمان: يـا عزيزى حليم جلبى افنـدى بحق روح سيدك السلطان سـليم الأول وكرامة

للسلطان سليمان حل مشكلنا هذا؛ حين نحارب السلطان سليم ووالده السلطان با يزيد فى وادى أوغراش بالقرب من سوق حاجى أوغلو، ولحقت الهزيمة بسليم؛ فانطلق إلى طرابيزون وبدّل ثيابه وقال: حدثنا عما رأيت فى سياحتك. وأمسك يد أبى من خلف، وقال: بينما كان سليم منزويًا فى طرابيزون دعانى أنا وقره نديم إلى حضرته، وقال لنا: ما قولكما أيها الفتيان؟ هل لى من سياحة معكما، (فقرأنا الفاتحة بعد البسملة، بدون أن نسأله عن وجهتنا فى هذه السياحة)، وأخرج سليم مصحفاً من جيبه واستحلفنا عليه بأن تبقى هذه الأسرار طى الكتمان، فأقسمنا على هذا عملاً بالقول : تطير رؤوسنا، ولا نفشى سرنا.

ودخلنا حجرة الخزانة فألبس كل واحد منا حزقه بكتاشيه وأعطى فى يده بلطة مسلمية، وفى خصره مقلاع داودى، وعلى رأسه عمامه واحديه وربطنا على حضورنا تنوة حمراء من الجلد اطمسك، واعطاه مجموعة عظيمة من التحف. ووضع على كتفنا فروا وإحراماً؛ وأحضر لنا حماراً فحَمَّلُنا الكتب والهدايا، وفى الصباح غادرنا طرابيزون فى غفلة من العدو، وانطلقنا فى طرئنا، أما سليم ده ده فكان فتى قوياً مهيباً، وشاباً عالى الجبهة، ولما كنت أنا وحليمى وقره نديم شابين فى العشرين وكأننا اثنان من ملاعبى القرود وطوال الطريق لم تتلكم فى شئ من أمور الدولة وجعلنا نصيد فى تلك الديار فصدنا كثيراً واتسعنا فى الفتح، وقلنا لنمض إلى بلد آخر، وفى اليوم السابع صلّينا فى جوامع بديار قره بوداق خان بإقليم الملك شامخال ملك داغستان، ثم التقينا بقالقه شاشمخال خان، فقال: من أين جئتم أيها الدرويش، فقال إن سليم ده ده، إننا قادمون من بلاد الروم. فنزلنا ضيوفاً لديه أيام عدة، ثم مضينا من هناك إلى مدينة (طرخو) ثم إلى مدينة (قوون) ثم إلى (دميرقبو) على حدود العجم. وتسلمنا رسائل من خان العجم. إلى قلعة (باكو) ومنها إلى كيلان وكنجه وشيروان، وبلغنا مازندران على ساحل بحر الخزر. وهناك مكثنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم مضينا إلى (قم) ثم إلى (كاشان) ثم إلى جبل ذيلم وفى خراسان كان تجديد البيعة من مولانا الإمام ( )* وتجديد السكه. وخدمنا لديه مدة شهروحملنا الرسائل إلى أبناء (حاجى بكتاش ولى)

* بياض فى الأصل

فى بلاد الروم وأذن لنا الشيخ بالمغادرة. ولما بلغنا أصبهان كناقد طفنا بمائة وسبعين مدينة، فى ذلك المكان بلغنا أصفهان الذى شيدت فيه هذه المدينة المسماة بنصف الدنيا، وأقمنا فى خانقاه للقلندرية بأصفهان، واتجه كل منا إلى صوب ومضينا لمشاهدة المدينة، وفى المقاهى اتسعت الشهرة لسليم ده ده، بمهارته فى لعب الشطرنج حتى أن أحداً من أساتذة اللعبة، لم يكن بمقدروه أن يرفع بيدقاً أمامه، وقد تملكه العجز أهل أصفهان وملأتهم الحيرة من لعب سليم ده ده وقالوا إذا لعب هذا الدرويش الشطرنج مع شاهنا الجميل فلن يسلم منه وسيغلبه وأقسموا بالله جهد أيمانهم. وقالوا للشاه عليك أن تلعب الشطرنج مع سليم ده ده هذا. فقال الشاه آتوا لى بهذا الدرويش فوراً فرأينا رجلاً على حمار أشهب يخرج من خانقاه القلندرية وسلم قائلاً السلام على عباد الله العاشقين. فقالوا زادكم الله عشقاً بكمال جمالك فلما قالوا تفضل الشاه يستدعيكم عندما وصلنا نحن الأصدقاء والظرفاء الثلاثة بخرقنا الفاخرة إلى حضرة الشاه أخرج سليم ده ده من خصره صُوْرًا وتلى دعاء محمديًا ودعادً لحيدر الكرار وهى تتألف من اثنى عشر بندًا ترمز إلى الأئمة الاثنى عشر، وقال من أسماء الله الحسنى: يا واحد الفرد الأحد القادر المؤخّر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى، كما تلى اثنتى عشر زمزمة وذكر الأسماء كذلك، وقال: ليس منى ركوع ولا منى قيام السلام عليكم، عليكم السلام وترنم بهذه الأبيات داعيًا له:

إن الآفاق أيها الملك نور ونار
فكن للدهر مصباحًا مثل الشمس أنار
الصحراء والوادى لنا فجة عطْرِ
وكن للروض زينة كالزهر
لم يخلق الله الدنيا إلا بك
وحيثما كنت كن يا مليكى الملك

فلما أنشد سليم هذا الدعاء، وقف الشاه إسماعيل من فرط سعادته، وقرّبه إليه وقال له أهلاً وسهلاً بك، ولما قال له: من أين تحمل السلام، قال له: يا مولاى، أنا غرس يد حاجى بكتاش ولى فى أرض قيصر وزرت ديار القرم ثم مملكة شمخال، ثم مشهد سلطان خراسان فى بخارى وأخذت الرسائل من الشيخ، وجئت لرؤية جمال سلطانى لأسلمها إلى الشاه يدًا بيد، ومن فرط سرور الشاه قال: أهلاً بك فى دارك، فقال سليم

ده ده: هو كذلك يـا مولاى، وكان يعنى أنها سـتصبح داره، وقرأ الشاه رسالـة الشيخ ودلنـا على ركن فـى قصره الشـامخ، فمكـث فى أصفـهان مدة مديـدة فجعل الـشاه إسمـاعيل سلـيم ده ده نديمًـا له وقاصًا يـقص عليـه الحكايـات، وقد أنس به الـشاه، وانعقـدت بينهم أواصر الألـفة. وذات يوم قال له الشـاه: يقولون أنك بارع فـى لعب الشطرنج، فقال له سلـيم: حقًا يا مولاى حقًا، فقال الشاه: هيا لنلـعب سويًا من قبيل المحبة فإما الـعرش وإما الحظ، فقال له سلـيم ده ده: ومن يا مولاى بقادر علـى منازلة الشاه، إن منصـب الشاهانية يمنع ذلـك، فقال الشاه: دعك من هذا وافـعل كل ما فى وسعك، وها هو الميدان لك وتدبر الأمر، فرأى سليم فى قول الشاه تواضعًا منه وقال: الله كريم، وعندما جعلا يلـعبان تفاءل سليم وقال فى نفسه: يا رب إذا مـا تغلبت على هذا الشاه فإن بلاده سوف تهزم بسيفـى والفرصة لى، وجرى قضاء الله أن يدخل الشاه فى خانة (مات) أى أنه هُزم فأنشد سليم هذا البيت:

عندمـا يشتبك الـفيل بالـفيل فالموت مـحقق
فاسـحب الفيـل من خانتـه فالملك قـد مات

ولما غلب الشاه ،غضب غضبًا شديدًا ولطم وجه سليم، فقال له سليم: لقد أخلفت وعدك عندمـا قلت لى دعك من الشـاهانية وافعل ما بـوسعك، فأنا لم أفعـل بقدر ما أعرف، ومات الملك لكنى يا مولاى لست ممن يخلف عهده، ثم رمز قائلاً سنلعب مرة أخرى ذات يوم، وسـأقول مات الملك أيـضًا، إلا أن الشاه لم يـفقه قوله، وقـال الشاه لنلعب فـى يوم آخر، ولعبا فى ذلك الـيوم ثلاث مرات، وغُلِب الشاه فـى تلك المرات الثلاث أيضًـا، فقال له الشاه أيهـا الديوث أتغلبنـى فى كل مرة، ولكن سلـيم وحقق بغيته، ونال من الشاه عطاء جزيل، وأذن لـه أيضًا فى زيارة ضريح الترك الأتراك الشيخ أحمد اليسـوى شيخ حاجى بكتاش، وغادر أصـفهان وشاهد مدنًا كثيـرة وزار كثيرًا من أولياء الله ودعـوا له بالخيـر، وبلغ تبـريز، وهمدان، وأردبـيل، ودركزين، ودرتـنك، ودرنه، وشهربان، وبغداد ،حيث مكث فى الأخـيرة أربعين يومًا زار فيها ضريح الإمام الأعظم، وعبد القادر الجـيلانى والشيخ شهاب الدين السهـروردى، وسلمان الفارسى، والإمام موسى الكاظم، ومعروف الكرخى والإمام الحسين والإمام علىّ كرم الله وجهه، وكل أولياء الله، وعفر جبينه على عتباتهم، وطلب المدد من روحانيتهم.

«ذكر مجىء الأمير سليم من بغداد إلى الكعبة فى أول سياحة له

ثم مضى سليم مع حجاج بغداد إلى الكعبة فى سبعة عشر يومًا، وحج البيت الشريف، كما قبل يد كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة هناك، ودعوا الله له بالخير، ثم تابع زياراته فمضى إلى المدينة المنورة، فى معية حجاج مصر، ثم زار قبر الرسول ﷺ وتضرع لرسول الله متعلقًا بسياج قبره، وصاح صيحة عالية وهو يقول: لقد انشقت مرارتنا يا رسول الله، رفعنا من شأن شرف الإسلام ويا له من شرف ولكن شراكسة مصر الكفرة أضروا به، علىّ عهد الله إذا توليت ويسر لى أمرى وفُتحت لى مصر فسوف أوقفها عليك وأجعلها مخزنًا لأطعمة الحجاز، وسأرسل إلى أمتك منها فى كل عام الكسوة والصرة، وجعل سليم يردد هذا من قوله سبع مرات منتحبًا: وإذا ما دعانى معدم بجوار ضريحك مستغيثًا بى قائلاً: يا سليم. كنت كفيلاً به مغيثًا له. وأشار إلى أنه سوف يقيم العدل فى الرعية ويبسط رعايته على علماء مصر، ثم حمد الله وأثنى عليه. وقدم سليم مصر مع فوج من حجاجها وبلغها بعد أربعين يومًا، ونزل ضيفًا على تكية الميمندى فى القرافة الكبرى وفى هذا الوقت وصل أسبابه بأسباب الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى؛ فقرأ عليهم السلام فرّد الشيخ أبو السعود الجارحى قائلاً: وعليكم السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين، ويا حاكم مصر سلامتك سلامتك، عجّل بالرحيل إلى بلاد الترك.

وكان ذلك بالمكاشفة وعرف ذلك الشيخ مرزوق كفافى بالوسيلة نفسها، وكان يجيد اللغة التركية، وقال له: امض سريعًا إلى بلاد الترك واعتل عرش الدولة ثم انطلق إلى العجم وبعد ذلك حينما ندعوك تعال، ولكن لا تبق فى مصر. لقد أخرجونا مع كبار أولياء الله من مصر، ولكن ما رأيناه فى مصر من فسق وفجور وعصيان فى اثنى عشر يومًا لم نجده فى بلد آخر، ففى تلك الفترة من الزمن أقام السلطان الغورى قناطر مياه القاهرة وعسف الناس عسفًا شديدًا وأمر العلماء بحمل الأحجار، ولم تكن له سيطرة على جنوده، وقد رأينا من هؤلاء الجنود الظلم والعدوان.

فركب سليم علـى صهوة جواده بعد أن استأذن من المشايخ، وأرسـل إلى خليل بن رمضان فى (أدنه) حتى يكون فى خدمته فى الـعودة، فمضى من مصر وبلغ (أدنه) بعد عشرين يـومًا، وبلغ بلاد التـرك، وبعد أربعة أيام بلـغ طرابيزون، والتقـى بأمه الرءوم ودعت له بالخير، وسأل عن أبيه با يزيد ولـى فأخبرته أنه مضى إلى ملك أردل وأفلاق وبوغدان الكفار، وكانوا قـد شقوا عصا الطاعة جميعًا واتحدوا جمـيعًا، ودعت سليم، وقالت له مرحبًا بمقدمك لقد فارقنا أميرًا عظيم ولا ذكر له منذ عامين، فهل استشهد فى هذه الحرب، واستـدعوا الأمير سليـمان بن سليم من «كَـفَه»، وقالوا إذا أجلسـناه على العـرش لدبر الأمـور يومًا بعـد يوم، وفى الـتو وصلـت رسائل الدرويـش سليـم إلى الأستانة؛ فـقالت أمة محمـد: إن الأمير سليم حـى يرزق فى خير وعافـية. ووصلت الرسائل من جميع الجهات والفرق العسكرية وكان القول فى الرسائل.. يا مولاى الأمير لا لزوم للعسكر حسبنا عهدنا ولتأت. ولما بلغت الرسائل الأمير سليم فى طرابيزون بعد سبعة أيام. وفى سبعمائة سفينة مضى سليم إلى «كفة» فعانق الأمير سليمان، ورأى فيه بطلاً شجـاعًا فقبل عيناه الـنرجسيتين، وأصبـح سمر محمد كراى خان، فـقدم كذلك واقترب من ادرنه فى جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل، واقتضت مشيئة الله أن كفار المجر قاموا بتحـركات عسكرية فأرسل سليم إلى بلغراد، ولما بـلغ سليم (صوفيه) جاء عسكر الإسـلام ببا يزيد خان إلى اسطنبـول، فمر هذا الخبر بسمع سلـيم؛ فتراجع عن «صوفيه»، وفى سهل «چورلو» احتشد الجند وقالوا بحياة با يزيد وسقوط سليم. أما المنصِفُـون فقالوا إن الدولة العـثمانية ضاعت منـا وتشاوروا فى الأمر، فقدم سـليم فى جيش عظيم وخـرج للقتال وبينما كان الـقتال يدور عزل السلطان با يـزيد ولى وأصبح سليم سلطانًا فى سهل «چورلى»، فقال با يزيـد ولى لسليم بعد أن عزله: لقد استوليت على سهل چورلى قهرًا قبل أن تكون خليفة، وسوف تتركه قهرًا جعلك الله قَصِير العمر وليكن سيفك حسـامًا وليكتب على جندك الانكشارية ألا يخلـعوا حذائهم ولا ثوبهم، ولتصب الواحد مـنهم ثلاثة أقچة، ولتكن رواتـب الجند جزيلة ولكنها عـديمة البركة، ولتعلوا هيبتهم ولينقطع وجود جثـهم فى الميدان وتذهب حماستهم للحرب، أما أرباب

الزعامة والتيمار فلا كفوا عن نزاعهم وشجارهم وليبتلى الأبناء بما صنع الآباء. وبهذا من كلامه دعا الله على جند العثمانيين كافة. وبينما كان سليم يمضى به إلى «ديما دوقيا» أسلم با يزيد الروح فى مكان يسمى «هاوسه» ولا نعلم السن الذى مات فيها ـ رحمة الله عليه ـ وفى عام ٩١٨هـ استقل سليم بالسلطنة.

«استقلال الأمير سليم بالسلطنة عام ٩١٨هـ»

ولقد بويع سليم فى موضع يسمى «يكى باغجه»، فى استانبول وفى الوقت الشافعى فى يوم مبايعته بالسلطنة بناء على تقرير حليمى جلبى لبس ثوب الدرويش فى القصر ثم زار مسجد أبى أيوب الأنصارى ثم مسجد محمد الفاتح، ثم دخل حجرة تسمى «صولاقلر اوده سى» فى الحجرات القديمة، فقال كل من فى الغرفة من الأوده باشى مرحبًا بك، وسألهم عن أحوالهم وتناول الإفطار وأثناء الكلام قال لهم هل تريدوننى سلطانًا محاربًا أم معتكفًا متفرغًا للدعاء، فقال بهى ده ده ينبغى أن نقوم بحملة لكى يحلل الله العلوفة التى نأخذها. لقد أحاط بنا الكفار والعجم من جهاتنا الأربع، ولم تبق لنا ولاية وينبغى علينا القتال توًا. فقال سليم: إذا انثنيتم عن هذا القرار فقد انثنيتم عن الإيمان فأقسموا له وأقسم فمضى سليم ده ده ووصل أمام الباب السلطانى ونفخ فى النفير حسب القانون البكتاشى فأخذ صحاف النقود من البوابين وعند الباب الأوسط نفخ فى النفير مرة ثانية وحظى بإنعام من كتخدا البوابين، فلما بلغ باب الآق أغا نفخ فى النفير مرة ثالثة وتسلم منه منحة مالية، وأثناء وقوفه لاحت له الفرصة ليتقدم منها إلى خصيان الداخل بغير تكلف وذهب إلى أحدهم فلما رحب به تقدم سليم مباشرة نحو الغرفة الخاصة فالأسرة التى تربى فيها سليم أسرة عريقة وجلس على السلطنة وكأنه الشمس بين النجوم واستقر عليه كأنه سد الإسكندر، ورأى أحد أغوات الخاصة أن درويشًا تسلل إلى الداخل وجلس فوق العرش السامى، فقرع الناقوس الحديد فهرع أربعون من رجال الغرفة الخاصة يحملون البالطة وعندما هجموا عليه كشف سليم عن ذراعه. فلما شاهدوه عرفوا أنه الأمير سليم لأن كثيرًا من الناس لم يشاهدوا سليمًا قط، ولكن الخدم الذين يعرفونه شاهدوه، وقالوا: أيها الأمير سليم. وعفروا جبينهم على

قدمه، وبايعوه فى حجرة (قرق خاص اوداسى) أى حجرة الأربعين الخاصة. جلوس السلطان سليم عليه الرحمة والغفران:

يا من ماتت قلوبهم إن وصال مولانا سليم
لقلوبهم السقيمة دواء

وبايعه على هذا النحو أركان الدولة: شيخ الإسلام، وسبعة وزراء، والعلماء، وصلحاء وأعيان الدولة كافة، وعرف بالخبر من ينتظرون البيعة فى (يكى باغچه) مقدم الناس زرافات زرافات وأثناء مبايعة السلطان سليم جاء دور فرقة الإنكشارية فرأوا من فى الحجرات القديمة أن من أكل معهم فى حجراتهم وحل اليمين هو السلطان نفسه، فطاشت عقولهم، فقال لهم: أتوفون بعهدكم؟ فقالوا: نحن على عهدك يا مولانا. فلنمض توًا إلى اسكودار، ولنخرج من باب أدرنه فجددوا العهد.

وفى اليوم التالى تمنطق سليم بالسيف فى مسجد أبى أيوب الأنصارى، وعاد إلى القصر فى موكب عظيم، وقال إن لدى سبع حملات، وجعل المنادين يقولون بذلك، وكان الصدر الأعظم آنئذ بيرى باشا وأسس سرادقًا خارج أدرنه وآخر خارج نطاق أسكودار وأرسل الرسائل إلى جميع الملوك، وخشى الكفار وأهل الضلالة من سليم، فأرسلوا نفائس الهدايا مع السفراء وجددوا السلام.

كما كتب رسالة إلى الشاه إسماعيل قال له فيها: «لقد توفى أبى با يزيد (الصوفى) وأنا من غَلَبْتكُ فى أصفهان ثلاث مرات، ولقد عقدت العزم على أن أغِيرُ عليك انتقامًا لتلك اللطمة التى لطمتنى إياها».

ولما بلغت هذه الرسالة الشاه إسماعيل قال: «يالله فى العام الماضى لاعبنى الشطرنج سليم الدرويش وغلبنى. لقد كان سليم أمير آل عثمان. ومزّق الرسالة قائلاً: واويلاه.

هذا ما نقلته أنا الفقير كثير الذنوب بمحضر من الشيوخ عن قوجه حليمى جلبى فى سيرة سليم خان وهذا صحيح لأنه كان من أقران سليمان خان ومع والدى ـ رحمه الله ـ وقد وقف على تلك الأمور وقد استمعوا له ولم يعارضوه فى شىء مما نقله.

ذكر حرب السلطان سليم
مع الشاه إسماعيل الصفوى فى چالديران

فى عام ٩٢٠ خرج السلطان سليم على رأس جيش عظيم لقتال الشاه فى إيران ووصل إلى صحراء چالدر، وهناك التقى الجيشان. وقبل بدء القتال أرسل ابن ذى القدر والسلطان الغورى مدداً من الجيش إلى الشاه إسماعيل، وقد فتح جند الشاه ثغرة فى جيش الإسلام، ودخلت السيوف ساقة[١] جيشنا. لأن العجم ملاعبو السيوف، ولهم البراعة فى استخدامها، وفى هذا الموضع كان الفريقان قد اتفقا على عدم إطلاق المدافع والبنادق فتذكر السلطان سليم، وقال: عندما كنت فى أصفهان لعبت الشطرنج مع الشاه بقطع النظر عن الملكية، ولما تغلبت عليه لم يف بالعهد، ولطم وجهى ناكثًا عهده، وهذا هو أوان نقض العهد وأمر بإطلاق المدافع وكان إياس باشا رئيسًا للإنكشارية وسرعان ما دمرت المدافع القزلباش عن آخرهم، ودارت الدائرة عليهم كافة، وفى سبع ساعات لم يبق فى أرض إيران من الجند أحد، وبينما كان الشاه فى فراره مع سبعة فرسان رأته امرأته وقالت له: جُعِلتُ فداك ياسليم لقد شتَّت شاهنا ودفعته للفرار فذلك بسبب من فرارك. لكن الشاه أحسن الشاه إليها، وعفى عنها ولا حاجة لنا إلى وصف معركة جلديران لأنها مشهورة، وقد وقعت فى الأسر زوجته «تاجلى هانم» مع أكثر من مائتى جارية من جواريه الملاح. وعاد سليم إلى الأستانة بمال قارون.

وبعد ذلك اتخذ من أماسيه مشتى له. إلا أنه لم يكن غافلاً عما أعده العجم من عُدَّة فخرج ابن ذو القدر علاء الدين من مرعش على رأس جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألفًا. ومضى به إلى مصيف كوكسن وعين السلطان سليم ( )[٢] باشا قائداً. وانتشب قتال عظيم وقتل علاء الدولة مع أبنائه وحمل من أسرته سبعين أسرى مكبلين بالحديد وبينهم شقيق جدنا أحمد بك سالمى بك وأرسلوا إلى السلطان الغورى فى مصر، وعندما رأى السلطان الغورى الأسرى على هذه الصورة، ورأى رأس علاء الدولة ورءوس

(١) الساقة: المؤخرة.

(٢) بياض بالأصل.

أبنائه، أدرك أنه أمام عدو قدير وأن الدائرة ستدور عليه وأن العثمانيين يريدونه بالسوء. وأطلق سراح الأسرى كما أطلق سراح عمّنا، ومضى إلى القدس الشريف، وصرف نظره عن رفع العلم ودق الطبل، ووجد فى القدس قبر (طور زيتا) فرممه.

وبسبب ظلم الجراكسة النحس وطغيانهم فى مصر فإن أذاهم لم يقتصر على الرعايا والعامة بل امتد ليشمل من يقال لهم فلان بن فلان وعيالهم ووكالاتهم ونالهم من الجند ذوى الشقاوة ما نالهم، وقدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر، وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء، وإذا مضينا إلى الهند كانت بلادًا بعيدةً، وإذا مضينا إلى العجم وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لا ثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، كما إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ، وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض إليهم. فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة وهتف كل من الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى قائلاً: تعال يا سليم! تعال يا سليم! تعال يا سليم!

وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسيه مع وزرائه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا ويونس باشا: إننا سمعنا من قال تعال «يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة. فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفافى بالمكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت ابوك.. وإذا ما دعوناك إلى مصر فأقدم» هذا ما قالاه. وهذا لصوت الذى وصل إلى مسامعكم هو كلامهم. هيا نعد العدة على وجه السرعة.

قتل السلطان سليم الأول لإخوته وأبناء أخوته

وبينما كانوا يعدون العدة لغزو مصر، جاء المستغيثون إلى سليم وقالوا: لقد شق أخوك قورقود من ناحية وأخوك أحمد عصا الطاعة من ناحية أخرى، وضاعت منك الولاية، فاتجه سليم نحوالسلطان أحمد وفى بورسه بجوار يكى شهر[1] حاربه، وفى

(١) تُقرأ ينى شهر.

هذه المعركة سقط الأمير أحمد عن فرسه وحُمِل إلى السلطان سليم أسيرًا. ولكنه لم يعف عنه، فأمر بقتله خنقًا فى حجرته، ودفن فى بورسه إلى جوار السلطان مراد الثانى، وفر الأمير مراد ابن الأمير أحمد من هذه المعركة إلى أردبيل، وطلب اللجوء إلى الشاه إسماعيل، ومات فى العام الثالث، وقبره فى أردبيل، ومضى الابن الأكبر للأمير أحمد، والابن الأكبر للأمير علاء الدين إلى السلطان سليم. فشملهم بعطفه وماتا الاثنان بالطاعون فى اسطنبول وبها دُفِنَا، ولقد اعتقل السلطان سليم كلا من ابن أخيه الأمير محمد والأمير محمود وأبنائهما الكبار: الأمير موسى، والأمير أورخان، وعثمان ابن السلطان على شاه. كل هؤلاء اعتقلهم السلطان سليم أثناء حربه مع أخيه الأمير أحمد، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم، ودفنوا جميعًا فى بورسه بجوار أورخان غازى، لأن هؤلاء فى عهد السلطان با يزيد ولى يعتبرون ملوك الطوائف، وكان لهم على مر الأيام أوضاع وأعمال شاذة، وكانوا يتحاربون ويتناحرون، وكان الرعايا والبرايا أشتاتًا وفى أسوأ حال، وضاق الناس بذلك ذرعًا فاتَّجهوا إلى العجم وأصبحوا لهم أتباعًا.

ثم اتجه السلطان سليم لمحاربة الأمير قورقود؛ فقام قورقود وجمع حوله عدة آلاف من الرعاع والسفلة، إلا أنه انهزم آخر الأمر، فهرب مع نائبه ودخلا كهفًا فى مقاطعة تكه. ولكن الجوع أجهدهم، فأعطوا رجلاً تركيًا جوادًا ليبيعه ويشترى لهم خبزًا وشعيرًا، وخرج الرجل بالجواد ليبيعه إلا أنه قبض عليه وسألوه من أين جاء بهذا الجواد؟ فقال: فى هذا الجبل سيدان باعاه لى ودلهم على الغار، وفى هذا الوقت قبض على قورقود ونائبه وأُرسلوا مقيدين إلى سليم إلا أنه لم يعف عنهما وأمر بقتلهما.

وحُمِل جثمان الأمير قورقود كذلك إلى بورسه ودفن إلى جوار أورخان غازى، وبعد ذلك أصبحت الدولة خالصة له.

واستقدم سليم الأمير سليمان من كَفَه إلى أدرنه وأشركه فى الحكم، وقال له تدبر أمرك وأسند له تدبير أمور الدولة وولاه على أدرنه وفوّض إليه كل أمر، فقد كان الأمير سليمان رشيدًا عاقلاً، وقال أحد أولياء الله: يا سليم إن إخوتك لا خير فيهم ولا جدوى منهم، وينبغى أن يخلفك سليمان على عرش الدولة.

وحقيقة الحال أن سليمًا لم يعقب ولدًا سوى سليمان، ولقد ولد فى طرابيزون كما ولد أبوه. ووالدته مدفونة الآن فى جامع خنكار فى بوزدپه.

ولقد ولد الأمير سليمان عام ٩٠٠ على رأس المائة، وبذلك أصبح مرموق المنزلة؛ فقد قال النبى ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة برأس كل مائة عام من يجدد لها دينها». ولذلك قتل سليم جميع أخوته لأنه رأى أن سليمان هو الأصلح للدولة. ومضى سليم إلى بورسه لزيارة «أمير سلطان» فقال: السلام عليكم يا أهل القبور. فسمع صوتًا يقول: «وعليكم السلام يا صاحب السيف والقلم.. ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين».. وتردد هذا الصوت من القبر الشريف. فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور، وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم: لقد بُشرت يا مولاى بفتح مصر.

ذكر حرب السلطان سليم الأول مع السلطان الغورى فى طريقه لفتح مصر

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان فى الأستانة، وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره، وهناك جمع جميع علماء الترك وأهل الفُتيا على المذاهب الأربعة وطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر وكان الطواشى سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك وبيَّنُوا ما جاء فيها؛ وقالوا: ما دام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

أما مضمون الفتوى التى أصدروها فهو:

ما الواجب فعله تجاه من يدَّعى أنه من ملوك الإسلام، وأنه خادم الحرمين الشريفين ومكة والمدينة، ومع ذلك ينضم إلى القِزلْباش الذين يسبُّون الخلفاء الراشدين، وحينما يحاربهم من يريد منع هذا السب عن الخلفاء الراشدين يؤازرهم صاحب مكة والمدينة ويرسل العون إلى القزلباش، وينبغى منع هذا السب واللعن، وأن يحمل بالسيف على مثل هذا السلطان الذى يمنع هذا السب فقتاله فرض ويجب أن يخلع لأن مثل تلك

الإمامات غير جائزة، ومن يتابع الروافض على ذلك ينبغى إهدار دمه والإغارة على مملكته، وينبغى قتله لا أسره، ويحرم الزواج من نسائه، ولا يجب اتخاذهن جوارى وينبغى محاربته كما ينبغى تقويض ملكه.

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى بمصر؛ فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذو القدر وسبعين من ابنائه، وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلىّ بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان وفيها يقول: ما دمت حيًا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلاً تعال إلى ميدانى.

وعندما تسلَّم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبًا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور، وإنما قُتل سفراء المسلمين فقتل الغورى حلال. فانهض يا مولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

ووكل السلطان سليم تدبير أمور الدولة إلى قره بيرى باشا فى اسطنبول وأمر بأن تكون إمارة الجيش للأمير سليمان. ومضى بالجيش من بروسه يطوى المراحل الواحدة تلو الأخرى، وفى قونية عَفَّر جبينه على عتبة سلطان العلماء ومولانا جلال الدين الرومى، وطلب المدد من روحانيتهما، ثم بلغ دولة الرمضانية فى أدنه وهناك أقام، وبناء على رسالة من الشيخ أبى السعود الجارحى نزل ضيفًا على خليل بك الرمضانى، وقال له: «إن قدَّر الله أن تكون مصر لى أبقيت على دولتك»، وقد قدم سليم هذه المرة بجيش عظيم ومنح آل رمضان جميع أوقاف وكل ما يملكون ومالهم من أقاليم ما عدا إقليم طرسوس، وجعل ابن رمضان طليعة جيشه وجعل فى مقدمة جيشه عشرين ألف جندى من صفوة الجند، وإلى طرسوس وصل من اسطنبول أكثر من ثلاثمائة سفينة مما يعرف بـ «بدرغه» ومائتا سفينة مما يعرف بـ «شايقه» و«قره مُرْسَل»، و«غليون» مع قدر

عظيم من الجند والعدة والعتاد، وبلغ نبأ ذلك السلطان سليم فسر سروراً ما بعده سرور؛ فدعا الله بالخير لبيرى باشا الذى فوض إليه النظر فى أمور الدولة بالأستانة ووصل الخبر من أحد رؤساء بوابى الباب العالى إلى الربان مصطفى بلاق باشا. ولما وصلت الأوامر إليه بألا يفارق ساحل البحر هذا فقام من طرسوس وبلغ ميناء الإسكندرونة، وهناك ألقى مرساة سفائنه. كما تحرك سليم من أدرنه على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف جندى من خيرة الجند، ودخل حدود مصر، ذلك أن أدنه كانت فى ذلك العصر حدود مصر، وغادرها إلى سهل مرج دابق بالقرب من موضع يسمى كلس وهناك أقام. فقدم عليه درويش وقال له: إذا شئت لنفسك أن تكون شجاعًا مظفرًا فاعلم أن داود بأمر الله حارب جالوت فى سهل مرج دابق هذا، وفى الموضع الذى انهزم فيه جالوت ضريح النبى داود ـ عليه السلام ـ، وقبل أن يقدم الغورى وَلِّ هذا الضريح ظهرك حتى تشاهد صنع الله، ففى هذا الموضع تعلق نظر الله ـ تعالى ـ وأنزل الله على حبيبه قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فانطلق لِتَوَلّ يا سليم لهذا الموضع وكن سد الإسكندر. وغاب الدرويش عن النظر، وسرعان ما قام سليم من هذا الموضع وعسكر عند مقام داود فى مرج دابق وأوقف الحراس فى الجهات الأربع ثم راح فى ثبات عظيم.

أول هزيمة لحقت بالغورى على يد السلطان سليم الأول

وفى صباح اليوم التالى قدم الغورى بجيش عظيم ووقف لملاقاة العثمانيين، وقام بترتيب سبع فرق من الجنود، وكان جيشه مؤلفًا من عشرين ألف جندى من حملة العصى وعشرين ألفًا من مقيمى الخيام وعشرين ألفَ سائسٍ وعشرين ألفَ فلاح من الحُرَّاس حاملى العصى، واثنى عشر ألفَ فارسٍ من خيرة الفرسان، وأربعين ألف فارس وثمانين ألفًا من أغوات الميرميران وأمراء الشراكسة، وعلى حد قول تواريخ الشهاب، وعلاوة على سائر الرعاع مائتين من حاملى السيوف. وواجه الغورى بهؤلاء الجند السلطان سليم فى مرج دابق. أما العثمانيون فكانت عدتهم سبعة وثمانين ألف جندى.

كأن قمر يوسف صعد إلى برج الميزان
وقد كشفت زليخة فى السحر عن الكنز للعيان
ومن السحر ظهرت الأنوار الإلهية
ومن القبة الزمردية قلنسوة ذهبية
وامتطى جميع الملوك صهوة فرسهم
وامتطى الشجعان بَبْرَهم[1] وغرهم

وقد اصطفت الصفوف وأعد كل كمين والتحم الفريقان، ودام القتال سبع ساعات على نحو لم يكن فى هذا السهل قتال مثله لداود مع جالوت، ولا نُطيل فى القول فقد هَبَّ نسيم النصر صَوْب سليم، وقد كان جميع جند الغورى حصاد السيف، أما البقية الباقية منهم فتعلقوا بأذيال الفرار مع الغورى قائلين (عينك يا مصر) ويقول بعض المؤرخين: إن الغورى قتل فى هذه المعركة ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشًا. ومكث سليم الأول فى سهل مرج دابق عشرين يومًا وجمع الأموال والغنائم، وكان الجمالة والحمّارة يلحقون بخدمته ويتلقون أجرتهم؛ فأثروا من كثرة ما كانوا يتلقون من أموال من السلطان سليم. ودفن جنود الغورى وأرزاقهم فى الأرض قائلين أن الصباح أم المعارك، وجاء جند آل عثمان واستخرجوها بعد قتل أصحابها، وأصبح جميع المتسولين فى غنية عن التسول.

ثم توجه السلطان سليم إلى قلعة عزز وأقام فيها، وقال جند الإسلام إن لدى الجراكسة أموال كثيرة فبحث جند سليم على جند الغورى وقتلوهم، وأخذوا أموالهم، وعلى هذه الصورة فإن وزير الغورى السابق للشام سينال وُكْرتباى وقوده باى ووزير الشام الحالى جان بردى مَلُّوا حياتهم وفروا هاربين، وفر خيرة بك الحاكم السابق لحلب، فر منها ومسح وجهه بالركاب السلطانى لسليم وأصبح عبدًا مطيعًا للسلطان

(١) البَبْرُ: النَّمِر.

سليم فأقسم له سليم كذلك أنه إن صدقت فى خدمته وقدر الله لسليم فتح مصر جعله حاكمًا مستقلاً وأعطاه جندًا بقدر ما يطلب وسوف ينظر فى هذا الأمر وأغراه بذلك وأغراه وأغدق عليه العطاء وأنعم عليه بإقليم كُستَنْدِيل فى بلاد الترك وقدم خيرة بك عظيمًا من الخدمات إلى السلطان سليم أثناء توقفه فى حلب الشهباء فى طريقه لفتح مصر وأقنع علماء حلب وصلحاءها وأئمتها وخطباءها ومشايخها وجنودها قاطبة بأن يسلموا مفاتيحها إلى السلطان سليم، ونالوا جميعًا نوال السلطان، وفى عام ٩٣١ فُتِحت حلب صلحًا وإيالتها أُسنِدت إلى قره جه باشا ومولويتها إلى جوملكجى زاده كمال جلبى.

ومكث السلطان سليم فى قصر الحاكم بحلب مع جيشه العظيم المظفر، وزار ضريح النبى زكريا فى الجامع الكبير وأضرحة باقى كبار أولياء الله والتمس المدد من روحانيتهم، وبعث برسائله إلى الولايات فى جميع الجهات لاستمالة الناس إلى جانبه فجىء له بمفاتيح القلاع وأعلن أهالى الولايات طاعتهم وولاءهم له وهذه الولايات هى:

مرعش، وعينتاب، وريحانية، والمعرة، وروحه، وبيره جيك، وحران، وكلس، وعزز، وحلب، وحماه، وحمص، ومَدَقْ وشَجَر، وأنتاكيّة، ولازقية وجبليّة ومارقاب وحَصين، وطرابلس، وبيروت وصيدا، وعكه، وصَفَد، والرَّملة، وزيدانيّة، وبعلبكه، شقف وطربية، وفلسطين، ولجون، وعجلون، ونابلس، والقدس، وغزت الهاشم. وقد فتحت هذه القلاع الحصينة ـ وهى قريب من مائة وأربعين ـ صلحًا، وانقاد أهلها وأطاعوا، كما خضع له بدو الصحراء مثل آل بنى سلامة، وآل رشيد، وآل وحيدات، وآل بنى عمورى، وآل بنى زهد، وآل بنى رباح، وآل بنى ترابى، وآل بنى سالم، وهم سبعون قبيلة. كما خضع له جميع الدروز والتيمانية واليزيدية والمروانية والهوبارية والمعروفية والأقلية والقزللية، والشهابية، والشهبازية، والنصيرية، والتاتكية وجميع القلاع الواقعة فى جبال بيروت وصيدا والتى كانت فى حوزة الفرق الضالة وهؤلاء جميعًا مسحوا جبينهم على حافر فرس السلطان سليم.

وبدأ سليم يتلو قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، ثم غادر السلطان سليم مدينة حلب ومضى إلى خانتيمان ثم أسند قلعة المعرة إلى أمير اللواء الغنى عطا، واستقبله أهل حماه ـ حماها الله ـ وقدموا له فروض الطاعة، وسلموه القلعة وعين عليها أمير اللواء طورخان بك، ثم استقبله أهل قلعة حمص قاطبة بالهدايا، وأنعم بها على أمير اللواء إخْتِمَان زاده ومنحت طرابلس الشام إلى قاسم باشا وصدر الأمر للأسطول العثمانى بالقدوم إلى طرابلس فمضى سليم إلى دمشق ولما اقترب منها قدم خيرة بك وجان بَرْدى وزير الغورى على دمشق وأهل دمشق فروض الطاعة للسلطان سليم وأصدر عفوه عما فرط منهم، وأسند ولاية دمشق ثانية إلى جان بَرْدى وتصدق على شيخ المولوية على مُنلا ودخل سليم دمشق فى موكب عظيم وبسطوا الديباج والمزركش فى كل ما مر به من طرق.

فتح قلعة دمشق

فُتِحت قلعة دمشق فى عام ٩٣١ ونادى الدلالون بذلك، وأصدر سليم فرمانًا بإقامة القلعة الداخلية لدمشق. وحينما كان سليم أميرًا ترك التاج والعرش فى طرابيزون وخرج للسياحة واستخلف عليها مير اللواء صارى أرسلان، وأمره بإقامة قلعة حصينة لدمشق، وبعد أن فتح سليم مصر، غادرها إلى دمشق، ووجد أن القلعة تم بناؤها؛ سماها باسْمِ بانيها صارى أرسلان، والقلعة الداخلية فى دمشق هى قلعة سليم التى بناها صارى أرسلان، أما القلعة الخارجية فهى لمعاوية بن أبى سفيان.

وجاء الحمام الزاجل من مصر إلى دمشق حاملاً الرسائل، وعندما وصل إلى جان بردى أخذ ما يحمله من رسائل وتوجه بها إلى السلطان سليم وبقراءتها جاء فيها أن السلطان الغورى لحقته الهزيمة فى مرج دابق وجميع الفارين من المعركة نفقت جمالهم وخيولهم ظمأ فى صحراء قطيّة وأم الحسن، أما الناجون منهم فقد قتلهم البدو، وتَأَتَّى للغورى أن يعود إلى مصر فى ستين من جنده وأسند قيادة الجيش إلى طومان باى. ولما قال جان بردى: أن الجند كتبوا هذه الرسالة صباحًا ووصلت الشام وقت العصر

أخذ العجب مأخذه من السلطان سليم، والآن يطير الحمام من ميناء إلى آخر فى مصر حاملاً الرسائل. ثم حشد سليم جنده وعدته وعتاده وكان تفقده لهم يومًا بعد يوم.

فى بيان قبر محيى الدين بن عربى

واقتضت حكمة الله أن كان السلطان سليم فى مشتاه فى دمشق وبينما كان يتصفح كتابًا مع كمال باشا زاده وجد فى رسائل محيى الدين بن عربى عبارة (إذا جاء السين دخل الشين ظهر بمرقد الميم) وهذه عبارة ألفاظها من الدرر والمقصود بالسين السلطان سليم ودخول الشين بمعنى دخوله الشام أى دمشق، والمقصود بالظهور بمرقد الميم هو ظهور قبر محيى الدين بن عربى، هذا ما استنتجاه من العبارة.

وأنكر سليم أن تكون هذه الرموز بحساب الجَفْر[1]، ومضى فى الحال إلى زيارة محيى الدين بن عربى، وقال لنكشف عن قبره ليبدو للعيان فسأل ذوى السن من رجال دمشق إلا أنهم لم يقتدروا على أن يوردوا خبرًا فى ذلك. وقال بعضهم: يفهم من هذه الرموز أن قبره فى أطراف دمشق ولما كان قبره غير معلوم حزن السلطان سليم حزنًا لا مزيد عليه، وفى تلك الليلة رأى فى منامه أن محيى الدين بن عربى قدم عليه وقال له: كنت فى انتظار مجيئك إلى الشام، مرحبًا بك لقد تيسر لك فتح مصر وأنا أزف إليك البشرى بذلك، فامتط صهوة فرس أسود فى الصَّباح وابحث عنى وارفع عنى تراب المذلّة وأقم لى ضريحًا فى الصالحية ومقامًا وجامعًا ومبرّةً ومدرسةً ومكتب صبيان وحمامًا وتكية ومحكمة وبيت للحاكم وأسواقًا صغيرة ونبعًا، وأجلب الماء فى جداول وعمِّر الصالحية فامض فإن الله يسّر لك.

وهَبَّ سليم من نومه وطلب أن يُسرَج له فرسًا أسود سريع العدو ولكن قيلَ له ليس فى الحظيرة فرس أسود، فقال: يجب أن تبحثوا وتجدوا هذا الفرس، وألح فى طلبه، وأخيرًا وجدوا برزون جموح أجرب فالتف حوله الخدم وروضوه ليكِّن ثم أسرجوه.

(١) الجَفْرُ: عِلْمٌ يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم.

وامتطى صهوته سليم دون أن يكون له لجام، وصهل واشتد عدوه وبلغ بالسلطان الصالحية واعتلى كومة من القمامة وجعل يصهل إلى حد لم يطق سليم صهيله، فنزل عنه وظهر له نعش حجرى كبير فكَفَّ البرزون عن الصهيل كأنما أتم خدمته ومضى نحو سليم وظل صامتًا ولسان حاله يقول هذا قبر محيى الدين فنظر سليم فى النعش الحجرى، فإذا به كتابة بالخط الكوفى هذا قبر محيى الدين.

وفى قديم الزمان لم يدرك المنكرون مزايا مؤلفات الصوفية فكفروه وكوموا على قبره مزبلة من تراب المذلة، فظل قبره مجهولاً، فجمع السلطان سليم فى الحال كل ما استطاع سبيلاً إلى جمعه من المعمارين والبنائين ولكى يشرُف بخدمة الشيخ حمل بنفسه ما فى المزبلة من أحجار كما حملها جميع جنده، وفى طرفة عين طهروها وبناء على ما سلف ذكره ورآه سليم فى منامه أقام خانات مغطاة بالرصاص وجامعًا ومَبَرَّةً ومدرسة ومكتبًا للصبيان وضريحًا ومحكمة ودار ضيافة ومستشفى على نحو ما ذكر تفصيلاً فى وصف دمشق. وبينما كان السلطان سليم فى مشتاه فى دمشق اشتغل بعلم الجَفْرِ وأنِس بمن لهم علم به، وفى حديث له معهم ذات يوم سأل الشيخ ناصر الطرسوسى قائلاً:

أيتيسر لى فتح مصر؟ فأجابه الشيخ الطرسوسى قائلاً: بشراك يا مولاى.. لقد شهد الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ أنك سوف تملك مصر فقد قال: لا بد من سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب.. وهو يقصد بجزيرة العرب جزيرة مصر بكلامه الذى كالدر النفيس. ومصر تسمى جزيرة لأن أحد ملوك القبابطة وهو طوطيس أجرى مياه النيل إلى بحر السويس فأصبَحَتْ مصر جزيرة. ولذلك تسمى مصر الجزيرة، وإن شاء الله سوف تفتح مصر بناء على كلام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وستكون أول خادم للحرمين الشريفين من آل عثمان، وبهذا بشره ناصر الطرسوسى بفتح مصر، كما أن عالمًا قال: إن القرآن أعلن أنك ستفتح مصر، وهذا ما استنتجه الإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ وبلغه للإمام الحسين فبلغه الإمام الحسين إلى زين العابدين، وبعد ذلك بلغه إلى السرى السقطى، ومنه إلى الجنيّد، وإن كلام القرآن الكريم له الدوام إلى يوم القيامة.

ولمقدمك إشارات ورموز ﴿ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وأهل الذكر مأذونون بإعلان هذا وليست فيه رخصة، والآية الشريفة هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فلفظ «ولقد» يساوى مائة وأربعين وكذلك عدد لفظ سليم وهو إشارة إلى سليم.

ولفظ «ذكر» يساوى تسعمائة وعشرينًا و«من بعد الذكر» أى بعد تسعمائة سوف تكون فاتح مصر. «أن الأرض يرثها» ولفظ أرض بدون تعريفه باللام عندما يذكر يشير إلى أرض مصر، كما أن «أرض» بـ ال تفيد الإرادة: أى أن هذا المعنى يتقرر بناء على قاعدة علم الجَفْر.

«عبادى الصالحون» يعنى أن الله أعدك من عباده الصالحين، وسترث مصر وحسبك هذه البشرى، امض راشداً إن مصر لك. ودعى الله أن يعينه وينصره. فقال سليم ثانية: إلى كم تدوم سلطنتى؟ فردّ قائلاً: لا أعرف سوى لفظ جداً. لا يعلم الغيب إلا الله. وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفه.

ولو أن لفظ (جدا) يساوى ثمانية. فإن فتحه لمصر ووصوله إلى اسطنبول سلطنته قد دامت ثمانية أعوام، وهكذا علم الجفر علم خفى وصحة هذا الخبر: أن سليم أمضى الشتاء فى الشام بمشقة وبدأ ماء الرحمة فى الجريان، وترك جند قوجه بيدرمان فى الشام بجانب جان بردى وكوز لجة قاسم باشا وقطع المنازل وطوى المراجل حتى بلغ غزة بعسكر الإسلام، ومن الجنوب وصل سليم إلى نابلس ومنها إلى القدس، وزار الأنبياء وطلب المدد من روحانيتهم وغلب على جبل الخليل وزار جميع الأنْبِياء.

فتح قلعة غزَّت الهاشم صلحًا

ثم استراح فيها سبعة أيام، وخضع جميع البدو له ودانوا له بالطاعة، وقبَّل قدمه بنوزُهد وآل عمور وآل رشيد وآل رباح وآل معان وآل شهاب وآل تُرَابى وآل خرفوش وآل حَبش وآل سعيد وبنو إبراهيم وبنو السوالم وبنى عطية وبنو عمران وبنو حوالم وبنو جوران وبنو البُصْرى وبنو جعفر ومشايخ نابلس وصفد وعكة والرملة وفلسطين وغزة

والقدس والخليل والكرك والعقبة وصَفَر وأتباعهم ونال كل منهم نصيبًا من إحسانه، ودانت له بالطاعة جميع العشائر والقبائل، وتعهدوا جميعًا بأن تطيب نفسهم بخدمته، ولكى يجتاز صحراء أم الحسن وقطيّة أمدوه بأربعمائة ألف جمل يحمل ماء، ولما غادر غزة ووطأت قدمه صحراء مصر والعظمة لله، فقد هطلت غيث الرحمة، وإن من تخوفوا من الظمأ فى الصحراء ساءهم أن يهطل المطر كأنه سيل فأصبحت أرض الصحراء من طين.

ولما وصل سليم خان يونس قتل يونس باشا وبنى بماله قلعة خان يونس، وطوى الجند الأرض طيًا ووصل العريش وفى ذلك الموضع تقدم الصدر الأعظم سنان باشا وخليل الرمضانى بك وخيرة بك الشركسى وعبروا صحراء قطيّة وأم الحسن وبلغوا الصالحية فظهر رعاع الشراكسة فى حدائق النخيل إلا أن السيوف حصدتهم حصدًا وأحضر البدو أكثر من ألف شركسى وأعملوا فيهم السيف بعد أن سلموا أسلحتهم لبدو الصحراء، ثم مضوا إلى أم القرين وأرسلوا دليل الجراكسة إلى حضرة السلطان سليم فقال: هل لسلطاننا الغورى طاقة لكم فى صحراء بلبيس، لا تغفل عن هذا.. فأطلق سراح الأدلاء.

حرب سليم مع الغورى وعاقبة أمر الغورى

والتقى الجمعان فى القرين بالقرب من بلبيس ولم يستطع الجيش أن يرى الجيش الآخر الذى يقاتله من دوى المدافع والبنادق. واتفق أن هب نسيم فأثار غبارًا كان حجابًا بين الجيشين، ورأوا أن جنود الغورى صاروا فلولاً متفرقة وأصبحوا من قبيلة «موتوا بأمر الله» فتحين الجنود العثمانيون الفرصة وشدوا عليهم وانقض عليهم طومان باى من جانب كما ينقض الذئب الجائع على الغنم، ودارت رحى الحرب من وقت الزوال إلى وقت الغروب، وما أشبهت هذه الحربَ حربٌ، وقرع الطبول، والتحم جند الفريقين فى معركة حامية الوطيس، والتفت الساق بالساق وانحلت الدروع. وفى هذه الليلة دفن من العثمانيين سبعة آلاف. وقد استبسل فى القتال خيرة بك والذى جاء مددًا للجيش العثمانى فى هذه المعركة، وهذا وارد فى تواريخ مصر، وعرفوا أن خيرة بك حليف العثمانيين، وفى صباح اليوم التالى دقت طبول الحرب وكأنها تقول: أين من يحتسى

كأس الحمام فى هذه الحرب، واتفق أن حمل جميع جند الغورى على العثمانيين كأنهم بلاء أسود وكأنهم قضاء مبرم، ودخل بينهم جند العثمانيين بكل أسلحتهم وأطلق الإنكشارية البنادق من ناحيتهم وبقوا فى نار النمرود، فألقت المدافع ثلاثمائة وستين قذيفة فاسودّت السماء والأرض بالبارود، ورأوا أن جند الغورى تقهقروا وقيل إنها خدعة منهم.

ورأوا أن قرار الجراكسة تبدّل فرارًا، وأصبح سهل بلبيس كحديقة للزهر الأحمر مما جرى فيه من دماء، وإلى وقت الغروب كانوا كقصّاب يعود إلى كبشه وجعلوا يتلون آيات الذكر الحكيم ويدهم وسيفهم ملطخ بالدماء وهم عراة الأجسام، ومضوا إلى مقر سليم ونالوا منه العطاء، وظل غزاة المسلمين فى مواضعهم مطمئنين وقالوا لسليم: لنحاصر مصر ولنغادر هذا المكان، إلا أن خيرة بك لم يقبل منهم ذلك وقال:

يا مولاى السلطان إن الجند الآن متعبون، لقد ألحقوا الهزيمة بالعدو مرتين، لا شك أن فتنة تثور فى قلوبهم، وبذلك ثنى سليمًا عن عزم الحملة على مصر؛ واستراح عسكر الإسلام فى بلبيس ثلاثة أيام وشاء الله أن فى هذا اليوم من أيام الحرب مات الغورى فى جانب من ذلك السهل على سجادة وهو متوجه إلى القبلة. وقطع عنقه أحد الجراكسة كى لا يكون ذلك بيد عثمانى ولف جثته فى سجادة ومضى بها إلى السلطان سليم واستقدم خيرة بك الجراكسة فقالوا: إنها جثة الغورى، ولم يتعرف عليه بعضهم لأن الجثة كانت بلا رأس؛ فقالوا: إنها ليست جثته.

ولكن بعد مرور سبعة عشر عامًا أوصى معلم مكتب فى بلبيس بأن يكتب على قبره «أنا الغورى»، وأدركه الموت والخاتم الذى فى إصبعه وجرح السيف فى ذراعه يثبتان أنه الغورى. وجملة القول أن الغورى فقد فى معركة بلبيس هذه. وقال خيرة بك فى الجند إنه بلا رأس ولا عنق وآخر الأمر ولوّ العرش ابنه السلطان محمد إلا أن البعض لم يُقر ذلك، وقالوا: إذا ولينا فتًى غريرًا ناقص التجربة مثله فماذا تكون عاقبة الأمر؟ وماذا يستطيع أن يفعله تجاه العثمانيين يجدر بنا أن نختار طومان باى خليفة. هذا ما قالوه. ودارت الحرب بينهم شهرًا فى مصر وكان النصر لأنصار طومان باى واستخلف طومان

باى دويدار ولقب بالملك الأشرف وفى ذلك اليوم خرج الناس جميعًا للصلاة ونشبت معركة ضارية مع السلطان سليم بالقرب من الخانكة.

إلا أن الجراكسة لحقت بهم الهزيمة ثانية، وتجدد القتال فى صباح الغد فى الخانكة ودام إلى العصر وأرسلوا إلى السلطان سليم قائلين: نحن لا نحاربكم بالمدافع والبنادق فإن هذه الحرب بإطلاق النار خاصة بالكفار، وذلك لأن الجراكسة لم تكن لهم طاقة بالمدفع والبندقية أما إذا كان السيف يستخدم فى القتال فلا يمكن مواجهة المصريين لأنهم حقًا كالعجم فرسان يحسنون القتال بالسيف وبالرمح. والحاصل أنه منذ مجىء سليم إلى مصر خاض مع الجراكسة أحد عشر معركة من بلبيس إلى أقصى مصر.

وفى نهاية الأمر نشب القتال فى وادى الريدانية أى فى سهل سبيل علام وكانت حربًا لا يشبهها حتى حرب علىّ - كرم الله وجهه - وقالوا: لقد تحاربنا طويلاً مع هذا العثمانى ودارت الدائرة علينا، فلنقتل سليم وعاهدوا الله على ذلك، وبينما كانت الحرب دائرة الرحى فى سبيل علام بلغ طومان باى وكُرْتَباى و ( )[1] باى معسكر الإسلام وظن طومان باى أن الصدر الأعظم خادم سنان باشا هو السلطان سليم ورشقه برمح فسقط عن جواده فقد كان سنان باشا بلا لحية كالسلطان سليم، وكان السلطان سليم يركب فرسه وعليه ثياب كثياب سنان باشا.

وظن كرتباى أنه وزير آخر للسلطان فأسقطه عن فرسه، وظن الثلاثة أنهم أسقطوا الوزير عن فرسه، فسلك ثلاثة وزراء الطريق إلى سليم وأصبح ( )[2] باشا صدر أعظم.

وقامت معركة فى وقت الغروب ومكث العثمانيون فى العادلية، ودخل المصريون جميعًا مصر وتَحَصَّنُوا فيها، وضرب العثمانيون عليهم الحصار ودان لهم بالطاعة جميع رؤساء قبائل العرب ولم يحضروا حبة من غلال وأحاط جند من العرب بالمدينة من جوانبها الأربعة وفى ذلك اليوم قدم ابن خبير وابن بنى سيف وابن عوار وابن ايد وابن حمادة وهم من شيوخ العرب المقيمين قبالة شاطئ النيل ومسحوا وجوههم بحافر فرس سليم، وقد طيّب خاطرهم بما لا مزيد عليه ورجع كل منهم إلى قبيلته وعليه خلع

(١، ٢) بياض بالأصل.

فاخرة وجمعوا جميع جنودهم على الشاطئ الغربى للنيل، وقاموا بالحراسة إلى حد أن الطير لم يكن يطير من هذا الجانب، وفى البداية حاصر جند الإسلام القلعة الداخلية وبدأ كوزلجه قاسم باشا قَصْف القلعة باثنى عشر مدفعًا واقتحمها من جبل الجوشى، ودخل عسكر الترك جامع السلطان حسن وتحصَّنوا بالحواجز، ويسمون ذلك باب الوزير، وتحصن الوزير الأعظم ( )[1] باشا وراء الحواجز عند جامع النظامية ودارت رحى المعارك ليل نهار. وبينما كان كل طوائف الجند تنحدر من القلعة اتفق أن أخبر بوابو القلعة الداخلية الذين يسمون أبناء الألواح أخبروا السلطان سليم، وفتحوا باب المطبخ وبينما كان السلطان سليم يدخل القلعة الداخلية وفى معيّته أغوات الداخل وحراس الباب وسبعة من وزراء القبة، كان رجل أعمى ينتظرهم عند الباب منذ أربعين عامًا، وكان يقول «شوى شوى سلطان سليم»، وبينما كان سليم يدخل القلعة التصق هذا الأعمى بركاب فرس سليم ورقد وأسلم الروح وهو يقول: «شوى شوى يا سليم»، وتحسب بحساب الجُمل، وهذا الأعمى مدفون فى نهاية باب المطبخ، والآن أحفاده لهم معاش دائم، وبينما كان السلطان سليم تحت سُلّم ديوان قيتباى انطلقت قذيفة مدفع من القلعة وأصابت طرف قمة رأس سليم ثم قام السلطان سليم ومكث فى بناء حصين أسفل حجرات العيارين، وبيّضوا قصر القلعة وزينوه بالأعلام ومن هذا الموضع رأى أهل المدينة أن القلعة الداخلية للقاهرة قد فُتحت؛ فرحب أهل القاهرة جميعًا بجند العثمانيين، وقامت كذلك حرب شعواء رهيبة، وكان للغورى فى الميدان الأسود اثنا عشر ألف جندى زنجى من العرب.

ولذلك يسمون الميدان قره ميدان أى الميدان الأسود، ودخل جند الروملى هذا الميدان واشتبكوا معهم وقاتلوهم ونصبوا جثثهم السود فى الميدان، ولذلك سُمى قره ميدان أى الميدان الأسود.

(١) بياض بالأصل.

فتح قلعة القاهرة عام ٩٢٢ بعد معركة طاحنة

وقال كمال باشا زاده فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢ وقال الشيخ نصر الله سلطان سليم شوى شوى ٩٢٢ وفاتح ممالك العرب سنة ٩٢٣.

فتح سليم القلعة الداخلية وخلع على كل من دخل القلعة من وزراء ووكلاء وأعيان خلعًا على حسب رتبة كل منهم ويمضمون (الكريم إذا عهد وفا) ولى مصر ووزارتها خيرة بك، ومُنح كمال باشا زاده أحمد أفندى قاضى عسكر الروملى مولويتها، وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة ـ أدى جند الإسلام صلاة الجمعة فى جامع قلاوون وتلى الخطبة كمال باشا زاده، وذكر فيها خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان با يزيد خان، فسجد سليم سجدة الشكر وسمع كل الجراكسة تحت القلعة بأن خيرة بك عُين وزيرًا لمصر فأوصدوا جميع بواباتهم وجعلوا أسلحتهم وماءهم فى بيوتهم ودامت الحرب ثانية بينهم وبين جند الإسلام سبعين يومًا فى الأسطح والسراديب وفى المنارات ليل نهار.

وهتف جميع أهل القاهرة قائلين: «الله ينصر السلطان طومان باى» وكانت الخطبة فى الصعيد تتلى باسم السلطان طومان باى سبعين يومًا.

وبناء على ذلك قدّم طومان باى وكرتباى و ( )[1] باى المدد إلى مدن الصعيد ثمانى وسبعين مرة، ونشبت المعارك وسُدَّ كل بيت بباب من حديد، وقذفت النساء من أسطحهن وكُوَّاتهن غزاة الإسلام بالحجارة والماء الحار والقاذورات.

وآخر الأمر أمر السلطان سليم لنساء مصر بعلوفة ـ أى رواتب ـ وفتح الصعيد، وبقيت رواتب الجوارى فى مصر منذ عهد السلطان سليم، وآخر الأمر استوجب سليم من خيرة بك القضاء على طومان باى ووعد خيرة بك ابن خبير خيرًا، والتزم بذلك، وجاءه الخبر بأن طومان باى فى قلعة حصينة فى الفيّوم، فأخبر سليم هذا الخبر، فأرسل سليم مصطفى باشا رئيس بكوات الروملى، ومضى مع خبير أوغلى إلى مكمن طومان باى وكان طومان باى نائمًا، ورأى فى منامه النبى ﷺ فقال له: يا طومان باى لا بد أن

(١) بياض بالأصل.

تغار على عرضك. لقد أديت ما يستوجبه الشرف، أمض إلى سليم سوف أجعله يأتينى بك. وليأتنى سليم الغازى كذلك قريبًا»؛ فلفظ سليم الغازى يساوى العدد (١٤٦٣) وحقًا بلغ سليم اسطنبول وبعد ألف وأربعمائة وثلاثة وستين يومًا وافاه الأجل بمقتضى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] رحمة الله عليه.

وهب طومان باى من نومه وتوضأ فى التو، وصلى ركعتين ثم سَلَمَ، وامتطى صهوة فرسه وبينما كان فى سيره ظهر أمامه مصطفى باشا فحمله إلى سليم مقيدًا، كما أن سليم رأى فيما يرى النائم أن الرسول ﷺ جاءه، وقال له: «ابعث إلىّ طومان باى واسْعَ فى جنازته وأعاهدك أن أجعل مصر لك، وإذا ما بلغت اسطنبول فجئنى أنت الآخر. فقال سليم: يا رسول الله لمن أترك مصر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن مصر فى حمى الله يا سليم، وستبقى فى حوزة المسلمين إلى آخر الزمان فلا تحزن وفى تاريخها أنها ستكون للملك كعب الرابع ابن إبراهيم، من ذريتك»، ولفظ (غم يمه) أى لا تحزن يساوى العدد ١٠٠٣ وفى هذا العام سوف تقوم ثورة فى مصر.

ولفظ كعب من ذريتك يساوى ٩٢ ومحمد كذلك يساوى ٩٢ أى أن محمد الرابع ابن إبراهيم فى هذا التاريخ ستكون مصر فى حوزته.

فهبّ سليم من نومه مضطربًا، وبينما كان يصلى قيل له يا مولاى قَدِم طومان باى.

الحوار الذى دار بين طومان باى والسلطان سليم وقتل طومان باى

وبمجرد أن فرغ سليم من صلاته خرج وقال:

مرحبًا بك يا أخى طومان باى، فقال طومان باى توًا: لقد قبلت الأخوة وطبق الفَتْوة الأولى وقد أخذت ما فى يدنا من أموال وجعلت منا نحن الجراكسة كفار ملاعين، والآن تقول يا أخى، وإذا كنتُ أخاك الكافر فمن تكون؟ عليك أن تختار أحسنهما، فقال سليم: هذا يكون فى سبيل الملك.

فقال طومان باى هـل الملك الذى ورثته عن والدك أن تقتل هـذا القدر من عباد الله بسبب طمع الدنيا، من سيجيب عن سؤالهم يوم الحساب.

فقال السـلطان سليم: لقد سـاعدت العجم لذا فأنـت تستحق القتل، فـقال طومان باى: حاشـا لله، ما كان منـا عون. إن عَلِيَّ الدولـةِ أَلْبَسَ فرقـةً من أشراف التـركمان سراويل حمرًا وسمـاهم بأسماء مصرية، وقال: إن هذا هو المـدد من مصر، وحاشا أن تكون قطعت عنق عَلِيَّ الدولة وأرسلت رأسـه إلى الغورى فانتقمت أنت، وماذا تطلب غير ذلـك. فقال سليم: إنـك قتلت رسلنـا. فقال طومان باى: إنـهم بسطوا لسـانهم بالفحش فى حضرة الغـورى ولذا قتل منهم عشرة، أما الاثنان الباقيان فـلم ينطقا ببنت شفة فأطلق سراحهما.

قال سليم: لماذا خاربتنى كل هذه الحروب؟

قال طومان باى: ما دمت قد أغرت على أهلى وعيالـى وجئتِ لتقاتلنى فأنا مقاتلك إلى يوم الدين.

قال سليم: لماذا مثلت فى حضرتنا؟

رد طومان باى: إن الرسول ﷺ هو الذى أرسلنى، وهذا ما أقدمنى عليك.

وفى النهاية ألفى سليم أن كل كلامه هو الحق.

فقال سـليم: ولماذا قالوا: «الله ينـصر السلـطان طومان باى..؟» قال: إنـى أقمت العدل فى الفقراء، ولم أنسهم وهم الآن يحاربون فى الصعيد فاعدل أنت كذلك، وكف عن الحرب، وهم يتـبعونك وعندما قال ذلك أمـر سليم خيرة بك بصـلب طومان باى على باب زويلة ويظل سبع ساعات ثم ينزل. وسـار السلطان سليم فى جنازته من باب النصر حتى بـلغت العادلية كما حمل نـعشه على كتفه، لأن السلـطان طومان باى كان يحفظ القرآن ومن أهل العدل والعلم، حتى إن بناء العادلية منسوب إليه وهو مدفون فيه وقد كُتِب حول ضريحه تـاريخ (تسعمائة)[1] وأقيم على ضـريحه قبة عالية وأقيم كذلـك جامع، وكان الضيوف يجيئون ويروحون فى جـوانبه الأربعة، ولهم منازل ينـزلون فيها، كما أقيـم قصر شامخ يستـريح فيه وزراء مصر أول مقدمـهم وبعد

(١) بياض بالأصل.

ثلاثة أيام وثلاث ليال يدخلون القاهرة فى موكب عظيم. وجميع موالى مصر ووزرائها المعزولين يمكثون فى قبر طومان باى طالبين المدد من روحه الشريفة، ويمضون إلى هذا القبر قبل خروجهم إلى أى مكان، إن هذا القبر مزار عام، ويُسمونه العادلية، إنه حديقة كحديقة إرم.

أمر السلطان سليم بصلب طومان باى ودفنه، إلا أن الناس لم يهدأ لهم بال فى القاهرة، فكانت مناوشات تقع لأن دولة طومان باى والغورى كانت دولة عظيمة، وقد حزن خيرة بك على الغورى وهو الذى كان دليل العثمانيين إلى مصر.

ولما تولى الحكم نكث الشراكسة جميعًا عهدهم وتحصنوا فى المدينة، وقاتلوا، وأمر خيرة بك العرب بأن تقول «الله ينصر السلطان طومان باى»، وأسمع ذلك السلطان سليم، وكان خيرة بك هو السبب فى قتل طومان باى، وهذا ما أغضب المصريين منه.

وأجبر العرب أن يتعاهدوا وجَنّد الأروام، كما أن جنود العثمانيين فتحوا مصر فى سبعة أشهر بعد إلحاق الهزيمة بجنودها، واستقل خيرِ بك بالوزارة فى مصر، فاطمأن السلطان سليم وتلقى الأسطول العثمانى هذا الخبر وقدم إلى الإسكندرية سبعمائة سفينة ونزل الجند بلا خشية ووصلت بشرى فتح الإسكندرية إلى سليم وقد أقيمت الاحتفالات ودامت سبعة أيام لفتح القاهرة ودمياط والإسكندرية ورشيد وآل الملك فى مكة والمدينة لآل عثمان، وأرسل السلطان سليم إلى أشراف مكة وتبابعة اليمن ونجاشىّ الحبشة وققان فونجستان وملوك الفور ودنقله وأفنو بورنو وسلاطين السودان، وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب، والبيت العباسى فى بغداد وملك الهند والشاه إسماعيل شاه العجم وحكام البصرة ولحسه وعُمَان أى جميع السلاطين والملوك رسائل المحبة يقول فيها: «أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين».

واستقل السلطان سليم بملك مصر وشغل نفسه بألزم ما يلزم مصر وقام شَغْبٌ فى قصر قيتباى فى الصباح ولم يبد شىء ولكن وجِد فى جانب من القصر أوهاق طول الواحد منها خمسين باعًا، ورآها سليم فسخط على القاهرة. فانتقل إلى قصر عين القبة وهى الآن تكية للبكتاشية وبما أنه درويش نزل عدة ليال ضيفًا عليهم ومقصورتهم باقية هناك فغادرها، وحقًا إن الروضة روضة من رياض الجنة.

خبر السلطان سليم الأول مع الفدائى كرتباى
فى قصر «أم القياس»

نزل السلطان سليم ضيفًا على جوسق المأمون فى جزيرة أم القياس خمس أو عشر ليال، وكان ينعم بالإقامة فيه، وكان يقوم بحراسته خدام حجرته إلا أنهم ظلوا عاجزين عن حراسته، وطرأ على السلطان سليم وهم طارئ بحيث عزّ عليه المنام.

وحكى حليمى چلبى الذى كان مرافقًا له يقول: كان السلطان سليم فى أم القياس فى تلك الليلة إلى منتصفها على خير ما يرام، وعندما حان وقت النوم وارتدينا ملابسه لم يكن أحد من الأغيار يعلم أن عدوًا تسلل إلى القصر وعندما صاح السلطان سليم على أحد الغلمان، خرج أمامه رجلاً عاريًا فى يده سيف خرج بجانب السلطان وعلى بعد ستين ذراعًا من القصر طرح نفسه فى النيل واختفى عن النظر، ورأينا سفينة ترسو بالقرب من القصر ولعل هذا الفدائى قد هبط منها ولكن قصر أم القياس شامخ فى النيل يرتفع مائه ذراع، فاشتد غضب السلطان سليم على جميع خدامه وأمر بحراس حجرته تلك الليلة أن يركعوا لقتلهم.

وكان برويز أغا فى ذلك الوقت وهو من صلحاء الأمة يلزم ركاب السلطان، فقال للسلطان: يا مولاى عليك فى البداية أن تستجوبنا ولك بعد ذلك أن تأمر بقتلنا. لقد عجزنا عن حراستك منذ أن فتحت مصر، ولما قلنا لننتظر سلطاننا تلك الليلة لحراسته ظهر لنا النبى ﷺ من الباب ولم نكن نعرفه ورفع عن وجهه نقابًا أصفر، فكشف عما لوجهه من جمال، وكان عليه خِلعة من ليف النخيل، وفى قدميه نعلان صفراوان وعلى رأسه الشريف عمامة كأنها حِمل بعير، وعلى جانبى العمامة طيلسانان فسلَّم وردّدنا عليه السلام.

وأراد رفاقنا أن يطردوه ولكنى قلت لهم لنتحدث معه، فسألناه من أين جئت إلى هنا؟ فقال: أنا رسول الله ولدىّ عهد مع سليم إلى يوم الدين على أن يخدمنى وأنا فى خدمته وذريته فى حمايتى إلى يوم الدين، لتطمئن نفوسكم وإذا وقع شىء فأنا أوقظ سليمًا من نومه فلا تقلقوا، ونزل من السلم وما كان من وجود لأحد. إن هذه حكمة

عجيبة وهذا ما أوقعه فى الحيرة والعجب وبينما كنا نتشاور فى هذا مع رفيقنا غمنا كما نام أصحاب الكهف وبعد مدة من الزمن رأينا سلطاننا يحمل السيف ويصيح ورأينا من يطرح نفسه فى اليَمّ ويغيب عن النظر. هو ذا ما قد وقع. وإن الأمر لمولانا السلطان، وعندئذ قال سليم: هذا ما رأيته فى المنام مع الرسول ﷺ، وقال لىّ: لقد نبهتُ خدامك إلى أن يستريحوا فى طمأنينة فلا تغضب منهم، وخذ حذرك ولكن لا تخف لن يلحق بك من ذلك ضرر، وقال لى: انهض، فاستيقظت فرأيت رجلاً أمامى وقد طرح سيفه بالقرب من قمة رأسى. فأخبرت الناس بذلك وكان الجميع نيامًا.

وقال: إن رؤياكم هى الواقع ولقد أطلقت سراحكم وعفوت عن الخدام الملحقين بحجرتى. وأجزل سليم لهم العطاء وجعلهم أمراء على مصر، ومنح كلاً منهم قصرًا شامخًا وكثرة من الجوارى.

ثم مضى سليم إلى القصر ثانية وجعل المنادين ينادون قائلين: فليأتِ من قدم تلك الليلة لقتلى فى قصر أم القياس له منى أمان وعهد آل عثمان، فليحضُر دون أن يخاف وله منى الأمان.

وعندما كان المنادون ينادون بذلك قدم بطل شركسى صنديد يُسمى كرتباى وقال: السلام عليك يا سليم، وكان رابط الجأش، فقال سليم: أأنت من قدم تلك الليلة ليقتلنى؟ فقال: نعم أنا هو. فقال سليم: لماذا فعلت هذا؟ فقال كرتباى لماذا لا أفعل ذلك لقد جئت غازيًا بلادنا، واستوليت على أهلى وعيالى، وأهلكت ما أهلكت من عباد الله، واستشهد فى الحروب معك سبعة من أبنائى واستوليت على كل ما أملك وفرقت بينى وبين أقرانى الشجعان وأولياء نعمتى مثل طومان باى حافظ كلام الله المجيد التقى الشجاع. فقُلتُ ينبغى أن أقتل سليمًا هذا وطلبت الإذن من رسول الله ﷺ فإن متاع الدنيا متاع الغرور، ورضاء الله خير وأبقى، لقد نزع الملك من الشراكسة وآل الملك إلى آل عثمان فلا تؤذه..

وفى هذه الليلة قلت يا رسول الله لم يقر لى قرار فلأنتقم من سليم ولذلك مضيت إليك فى تلك الليلة لأقتلك. فقال ﷺ: «إذا ما ذهبت فسوف أوقظ سليمًا».

وفى النهاية لم أطق فراق أبنائى وأحبائى، فجئت لأضع رأسى فى رمسى. فاستيقظت ولست أدرى ما الذى أفزعنى فطرحتُ نفسى فى اليم، إلا ما استطعت أن أرتد عن خمسين رجلاً فى محاولتى تلك، ولكن ماذا كان حالى فى تلك الليلة، لقد مررت فى سَبْحِى بجزيرة وبلغت قاربًا فنجوت. وبما أنك أعطيتنى الأمان قَدِمتُ، وهذا أمر الله.

فَسُرَّ السلطان سليم وضحك قائلاً: جندًا أنت من عدو جميل الوجه صادق القول. من الآن فصاعدًا لا تبق فى مصرى، امض إلى الجحيم، وقال كرتباى فورًا: وما شأنك بمصر إن هذه الدنيا متاع الغرور ليست ملكًا لأحد إن كنت عاقلاً فغادر مصر وامْضِ إلى الجحيم أنا لم أستطع قتلك ولكن فى مصر كم ممن يسخط عليك وسوف يقتلك واحد منهم فى يوم من الأيام وتسوء سمعتك. فسُرّ سليم من كلامه وأجزل له العطاء حتى إنه صحب غازى كرتباى إلى اسطنبول، ثم فوّض السلطان سليم كل الأمور إلى خيرة بك.

* * *